

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

القَصَصُ الدِّينِيّ

انْبِصَارُ السُّبُلِ

عبد الحميد جودة السحار

٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا
وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ ، وَاصْبِرُوا ؛ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴾ .

(قرآن کریم)

تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ ،
فَصَارَ كُلُّ فَارِسٍ أَبْلَى فِي جِهَادِ الْأَعْدَاءِ قَبْلَةَ
أَنْصَارِهِ ، يُؤَيِّدُونَهُ وَيُغْرُونَهُ عَلَى أَنْ يَسْتَقِلَّ بِالْأَمْرِ
وَحْدَهُ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ الْأَحْمَرِ مِنْ أَشْهَرِ
فُرْسَانَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا دَبَّ الضَّعْفُ فِي مَلُوكِ
الْمُؤَحِّدِينَ ، وَرَاحَ الزُّعَمَاءُ يَعْطُونَ الْحِصُونَ لِلْأَسْبَانِ ،
ثَارَ ابْنُ الْأَحْمَرِ ، وَاسْتَقِلَّ بِقَلْعَتِهِ ، سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ
وَسِتِّ مِائَةِ هِجْرِيَّةٍ .

وَاشْتَدَّ سَاعِدُ ابْنِ الْأَحْمَرِ بِقَرَابَتِهِ مِنْ بَنِي نَصْرٍ ،
وَأَصْهَارِهِ بَنِي أَشْقِيلُولَةَ ، وَثَارَ بِأَشْبِيلِيَّةَ أَبُو مَرْوَانَ
الْبَاجِيَّ ، فَصَالَحَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَحْمَرِ ، عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ

ابنته ، فأطاعه ودخل أشبيلية ، وسرعان ما غدر بـابن
الباجي وقتله .

وظل ابن الأحمر يرسل أعوانه إلى المدن القريبة ،
لاستمالة أهلها إليه ، وقد نجح في استمالة أهل غرناطة
إليه ، فدخلها وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله .

كان الأمراء يستعينون بملوك الأسيان ، لبسط
نفوذهم على المدن التي في حوزة الأمراء المسلمين ،
وكان ملوك الأسيان يعينون أميراً على أمير ، توهيناً
لأعدائهم . وقد مدَّ ابن الأحمر يده إلى طاغية أسبانيا
لِيُعاضِده ، فانتَهَزَ ملك أسبانيا هذه الفرصة ،
واستولى على قرطبة ، حاضرة الإسلام في
الأندلس ، في سنة ثلاث وثلاثين وست مائة من
هجرة الرسول .

وسار طاعية الأسبان وابن الأحمر إلى إشبيلية سنة
ست وأربعين وست مائة ، ودخلها صلحا ، ثم ملك
مرسية ، ولم يزل يقطع ممالك المسلمين ، كورة
كورة ، وثغرا ثغرا ، إلى أن ألقا المسلمين إلى سيف
البحر ، ما بين رندة من المغرب ، إلى البيرة من
مشرق الأندلس .

واستعاد العدو المخذول من المسلمين أكثر بلاد
الأندلس وحصونها ، ورأى ابن الأحمر أن الدائرة
ستدور عليه ، فتاب إلى رشد ، وثار على الطاغية ،
وراح يعمل على استرجاع الحصون ، ورأى أن
يستعين ببني مرين ، ملوك المغرب ، فبعث إليهم
يلتمس منهم العون .

وتوافد على الأندلس الغزاة من بني مرين ، فدفع
ابن الأحمر في نحر عدوه ، وفي أثناء ذلك مات ابن

الأحمر ، واستولى أبناؤه على جميع ما فى أيدي المسلمين .

٢

اشتدَّ ساعدُ بنى الأحمرِ بغرناطة ، ورأى «دون بطرُه» أن يُنازلَهم قبلَ أن يسيحُوا فى الأرض ، لاستِعادةِ الأراضى التى خرجتْ من أيدي المسلمين ، فانطلقَ إلى طليطلة ، ودخلَ على البابا ، وسجدَ له وتضرَّع ، وطلبَ منه استِصالَ ما بقىَ من المسلمين بالأندلس .

وبعثَ البابا إلى ملوكِ أوربة يستَفِزُّهم للحربِ المقدَّسة ، فاستجابَ له خمسةٌ وعشرونَ ملكاً ، وأخذوا الأُهبَةَ لطردِ المسلمين من أسبانيا .

قلِقَ الغنىُّ بالله ابنُ الأحمر ، لما بَلَغَه نبأ هذه التَّعبئة ، وأوجَسَ المسلمونَ بغرناطة خيفةً من ذلك

الاتحاد ، فاستنجدوا بالمريني أبي سعيد ، صاحب
فارس ، وأنفذوا إليه رُسُلاً ، ولكنَّ المرينيَّ لم يخفَّ
لنجدتهم ، فعقدَ المسلمونَ في الأندلسِ العزمَ على
أنَّ يُدافعوا عن الأرضِ الباقيةِ في حوزتهم حتَّى
الممات .

وأقبلَ « دون بطرُه » في جُموعٍ لا تُحصَى ،
ووصلتِ الأثقالُ والمجانيقُ وآلاتُ الحِصارِ والقواتُ
في المراكبِ ، ووصلَ العدوُّ إلى غرناطة وامتلاتِ
الأرضُ بهم ، وأغارَتُ سرِيَّةٌ من العدوِّ على سرِيَّةٍ
من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعةٌ من فرسانِ
الأندلسِ الرُّماةِ فقطعُوهم من الجيشِ ، وشارت دِماءُ
العربِ الفاتحينَ في أحقادِهِم ، فانقضُّوا على السَّرِيَّةِ
انقِضاضَ اللَّيْثِ الكَواسِرِ ، ولم يتركوها إلَّا بعدَ أن

استأصلوها ، وتركوها كأمس الدَّابر ، وكان هذا
أَوَّلَ النَّصْرِ .

وركب قائدُ المسلمين في خمسة آلافٍ من أبطاله
الصَّناديد ، واندفع نحو الفرنج . فلما شاهد الفرنجُ
قِلَّتَهُمْ ، عَجِبُوا من إقدامهم ، فماذا يفعلون في
جيشٍ « دون بطرُه » الزَّاحِر ، الذي لا يُحصَى ؟
ودارت المعركة ، وإذا بالفئة القليلة تجوسُ خلال
جُيوشِ الفرنج ، وإذا بالسُّيوفِ العربيَّة تاتلقُ في
الهواء ، ثم تهوى لتقطع الرِّقاب ، وتسيل الدِّماء . وإذا
بريح النَّصر تهبُّ عليهم ، فيزدادون عزماً وقوَّة .

وانقضت ثلاثة أيَّامٍ وسيوفُ المسلمين تأخذُ الفرنجَ
من كل جانب ، فانهزمَ الفرنجُ أقبحَ هزيمة ، وقتل
« دون بطرُه » ومن معه من الملوك . وخرج أهلُ
غرناطة لجمع الأموال ، وأخذ الأسرى ، فاستولوا

على أموالٍ عظيمة ، منها من الذهبِ ثلاثة وأربعون
قِنْطَارًا ، ومن السَّبْيِ سبعة آلافِ نفس ، وكان من
جُمْلَةِ الأسارى امرأة « دون بطْرُه » وأولاده ،
فَبَدَلَتْ في نفسها مدينة طَريف وجَبَلِ الفتح ، وثمانية
عشرَ حصنًا ، فلم يقبلِ المسلمون ذلك .

قُتِلَ المُلوكُ الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمرَّ
البيعُ في الأسرى والأسلابِ والدَّوابِّ ستة أشهر ،
ووردتِ البشائرُ بهذا النصرِ العظيمِ إلى سائرِ البلاد ،
ولكنَّ الإسلامَ لم يستفد كثيرًا بهذا النصر ، فقد دبَّ
الهرمُ في الدولة الأندلسية ، واستؤصل الرأس ، ولم
يبقَ إلا الذنب .

٣

وتعاقبَ ملوكُ بني الأَحرارِ على غرناطة ، حتى آل
الأمرُ إلى أبي الحَسَنِ بنِ سعد ، وكان ضَعِيفَ

الرأى ، غارقا فى لهوه وخمره ، يترك أمر الدولة ،
ليقضى وقته فى الحريم ، فقد هام حبا بحظيته
الأسبانية « ثريا » . وقد ساء ذلك زوجته الأخرى
السيدة عائشة ، فراحت كل منهما تستعين بأعوانها
لكيد غريماتها ، فكان فى ذلك زلزلة أركان دولة
غرناطة ، آخر دولة إسلامية فى إسبانيا .

كان السلطان يُقدم ولده أبا عبد الله محمد ،
ابن السيدة ثريا ، على ولديه محمد ويوسف . فدب
الشقاق فى الأسرة ، وانهز محمد ويوسف فرصة
انشغال أبيهما فى لذاته ، وفرّا إلى القشتاليين .

خرج محمد ويوسف مع القشتاليين لقتال أبيهما ،
فجمع أبو الحسن جموعه وقتلهم ، وانتصر
عليهما ، وأراد أن يثار من الأسبان ، لنصرتهم لابنيه

الثَّائِرِينَ عَلَيْهِ ، فَبَعَثَ ابْنَهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ لِقِتَالِهِمْ ، فَوَقَعَ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَسِيرًا فِي يَدِ الْأَسْبَانِ فِي بَعْضِ وَقَائِعِهِ .
وَدَبَّتِ الشَّيْخُوخَةُ فِي أَبِي الْحَسَنِ ، وَضَعُفَ
عَقْلُهُ ، بِاسْتِرْسَالِهِ فِي شَهْوَاتِهِ ، فَصَارَ لَا يَخْرُجُ مِنْ
دَارِهِ ، وَلَا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الدَّوْلَةِ ، فَسَاءَتِ حَالَةُ الْبِلَادِ ،
وَرَاحَ الْعَدُوُّ يَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . وَأُصِيبَ
أَبُو الْحَسَنِ بِالصَّرْعِ ، وَفَقَدَ بَصَرَهُ ، فَتَنَازَلَ عَنِ الْمُلْكِ
لَأَخِيهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الزُّعْلِي ؛ فَوَجَدَ الْأَسْبَانُ أَنَّ
الْفُرْصَةَ مُوَاطِئَةً لِلْقَضَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَطْلَقُوا أَبَا
عَبْدِ اللَّهِ مِنْ أَسْرِهِمْ لِمُنَاوَاةِ عَمِّهِ الزُّعْلِي .

سَارَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مَعَ الْأَسْبَانِ لِقِتَالِ عَمِّهِ ، وَفِي
أَثْنَاءِ انْدِلَاعِ هَيْبِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، انْتَهَزَ
فِرْدِينَانْدُ الْخَامِسُ مَلِكُ قَشْتَالَةِ ، وَإِيزَايِيلاً مَلِكَةُ
أَرَاغُونِ ، اللَّذَيْنِ اتَّحَدَا بِزَوَاجِهِمَا ، هَذِهِ الْفُرْصَةَ ،

ليستوليا على مألقة ، أمتع ثُغور الأندلس ، فى
أغسطس سنة ١٤٨٧ م .

ورأى عُقلاء المسلمين فى الصِّراع الدائر بين أبى
عبد الله وعمِّه الزُّغلِ قضاءً على الإسلام فى
الأندلس ، فعرضوا على الزُّغلِ وابن أخيه أن
يقتسما ما بقى فى البلاد ، حتى لا يكون خِلافهما
سبباً فى النكبة . فخرج الزُّغلُ إلى وادى آش ،
واستولى أبو عبد الله حليفُ فرديناند على غرناطة .

٤

لم يرض فرديناندُ عن هذه الهدنة ، التى عُقدت بين
الزُّغلِ وابن أخيه ، فراح يُرسِلُ إلى الزُّغلِ مَنْ يُشعلُ
نارَ الفتنَةِ بينه وبين ابن أخيه ، فقد حَقَّدَ فرديناندُ

على أبى عبد الله ، لأنه رفض أن يُسلمه حصن
الحمراء .

وسار الزُّغلُ مع فرديناند لقتال أبى عبد الله
حليف فرديناند بالأمس ، واستولى الأسبان على
أغلب الحصون القائمة حول غرناطة ، ووجد
فرديناند أن يتخلص من الزُّغل ، لبقى عبد الله
وحيداً فى الميدان ، فدسَّ إليه رجلاً يخوفه من
الأسبان ، ويعرضُ عليه أن يتنازل عن وادى آش
لفرديناند ، نظير مبلغ من المال .

وخدع الزُّغل ، وباع آش إلى فرديناند ، وحمل
المال الوفير ، وذهب إلى المغرب ، ولكن سلطانها
نقم عليه مؤازرته لفرديناند ، وبيعه أرض المسلمين ،
فصادر ماله وسمل عينيه ، وألقاه فى السجن حتى

مات ، وبقي أبو عبد الله وحده في الميدان ، يتلقى ضربات فرديناند وحلفائه .

صارت غرناطة ، عروس الأندلس التي فاض علمها حتى غمر أوربا جميعها ، وحدها في الميدان ، كانت جزيرة عربية ، يحيط بها الأعداء من كل جانب ، فقد ضرب حولها حصاراً شديداً ، لتخر صريعة تحت أقدام فرديناند .

وطارت الأنباء إلى الشرق تحمل خبر أفدح فجيعة تقع بالمسلمين ، الأعداء تحيط بآخر حصن للإسلام في الأندلس ، إحاطة السوار بالمعصم ، وإن هي إلا أيام حتى تصرع حضارة الإسلام في أسبانيا ، فاتفق بايزيد الثاني العثماني ، مع السلطان قايتباي ملك مصر ، على نجدة مسلمي غرناطة ، بأن يرسل بايزيد أسطولاً إلى أراضي أسبانيا ، وأن يبعث

قَايتَبَايَ جَيْشًا مِنْ جِهَةِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَهُمْ الْمَلِكَانِ بَنَجْدَةِ
إِخْوَانِهِمْ فِي الدِّينِ ، وَلَكِنْ بَايَزِيدَ شُغِلَ بِفِتْنَةِ أَبْنَائِهِ ،
الَّتِي انْتَهَتْ بِتَنَازُلِهِ عَنِ الْعَرْشِ لِابْنِهِ سَلِيمٍ .

وَأَوْجَسَ فَرْدِينَانْدُ وَإِزَابِيلَا خِيفَةً مِنْ تَأْيِيدِ قَايتَبَايَ
لِلْمُسْلِمِي غَرْنَاطَةِ ، فَبَعَثَا إِلَيْهِ الْمُسَيُوطَ بِطَرَفِ مَارْتِيرِ
سَفِيرًا ، فَأَقْنَعَ قَايتَبَايَ بِأَنَّ الْأَسْبَانِيِّينَ إِنَّمَا يُدَافِعُونَ
عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ الَّذِينَ اغْتَصَبُوا
دِيَارَهُمْ ، وَنَهَبُوا أَمْوَالَهُمْ ، وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ
فُسَادًا . فَاكْتَفَى قَايتَبَايُ بِأَن يُرْسِلَ إِلَى فَرْدِينَانْدِ
وَإِزَابِيلَا ، وَإِلَى الْبَابَا ، وَإِلَى مَلِكِ نَابُولِي ، بِعَدَمِ
إِرْهَاقِ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ .

وَذَهَبَتْ كَتَبُ قَايتَبَايَ صَرَخَةً فِي وَادٍ ، فَقَدْ
رَاحَتْ الْجُيُوشُ الْمَسِيحِيَّةُ تَتَدَفَّقُ فِي مَرَجِ غَرْنَاطَةِ
الْجَنُوبِيِّ ، وَأَخَذَتِ الْجُيُوشُ الْمَزُودَةُ بِالْمَدَافِعِ وَالذَّخَائِرِ

تدكُّ الحُصُون ، وراحَ فرديناندُ يبتنى لجيوشه مدينةَ
« سانتافي » (العناية المقدَّسة) ، فقد عَزَمَ على
ألاَّ يبرحَ المكان ، قبلَ أن يستأصلَ المسلمينَ من
أسبانيا .

وبقيتْ غرناطةٌ وحدها ، تنتظرُ مصيرَها المحتوم .